ملحق مشروع

بناء السلام في لبنان

العدد رقم 6، كانون الأول 2014 Issue nº 6, December 2014

من الشعب الياباني
From the People of Japan

شعوب متمكنة.
أمم صامدة.

ملحق خاص

يصدر عن مشروع «بناء السلام في لبنان» التابع لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي بتمويل من اليابان ويوزّع مع صحيفتي «النهار» و«السفير» بناءً على مذكرة تفاهم وقّعها البرنامج مع الصحيفتين، وعلى موقع الوكالة الوطنية للإعلام. يصدر المشروع النسخة الإنكليزية المترجمة منه مع جريدة The Daily Star.

© طلال خوري

السوريون بين ٨ و ١٤ آذار:
سقطت القضيّة الإنسانيّة

محطات سورية في لبنانيّتي

«الحلم البيروتي»

عن يامن الذي من حلب... حلب التي في سوريا

مناهضو العنصريّة في لبنان: المعركة طويلة

سوريون يحفرون ملامح بيروت

حكاية مخرج سوري مع بيروت
و«معمرجيّيها»

مواجهة الاختبار الحسّاس للاستقرار والمرونة

لطالما سلّطت الأمم المتحدة الضوء على مرونة الشعب اللبناني المميّزة ووحدته، وشدّدت على أهمية توفير الدعم لمجتمعاته المضيفة وللحكومة من أجل مواجهة التحديات المتعدّدة التي تفرضها الأزمة السورية.

في هذا السياق، عملت أسرة الأمم المتحدة في إطار تعاونٍ وثيقٍ مع الحكومة اللبنانية وشركاء دوليين على تطوير خطة استجابة للأزمة في لبنان لعامي 2015 - 2016. وركّزت على لبنان واللبنانيين، وهدفت إلى زيادة حجم المساعدة المقدّمة إلى المجتمعات الضعيفة التي تستضيف النازحين السوريين، ودعم البلديات وغيرها من المؤسسات العامة. وستعزّز الاستجابة الدولية لعام 2015 أولويات إرساء الاستقرار التي أقرّتها الحكومة اللبنانية وتشدّد على دور الحكومة في إدارة الاستجابة.

وستكافح هذه الخطة في سبيل تحقيق ثلاثة أهداف: توفير المساعدة الإنسانية والحماية للنازحين السوريين والمجتمعات اللبنانية الأكثر ضعفاً، تفعيل قدرات أنظمة تقديم الخدمات الوطنية والمحلية، وتعزيز الرفاه الاقتصادي والمؤسساتي والبيئي والاجتماعي في لبنان.

هذه الخطة تضع الحكومة في الواجهة، وقد استفادت من استشارة أكثر من 70 شريكاً لضمان شموليّتها. وتناهز الميزانية الإجمالية المتوقعة 2.1 مليار دولار أميركي مع تخصيص ثلثها ثم ثلثيها على التوالي لإرساء الاستقرار والبرامج الإنسانية. وعموماً، سيستفيد 2.9 مليون شخص (50 في المئة منهم من اللبنانيين) من تدابير مختلفة.

وتتضمّن خطة الاستجابة للأزمة في لبنان مبادرات عدة تهدف إلى التخفيف من التوتّرات بين السوريين واللبنانيين، ومن بينها مبادرات على غرار الملحق الإخباري المشترك الذي يوزّع اليوم مع جريدتي «النهار» و«السفير»، بالإضافة إلى النسخة المترجمة إلى اللغة الإنكليزية التي توزّع مع جريدة «دايلي ستار».

وكما هي الحال بالنسبة إلى الأعداد الخمسة السابقة، سيحاول هذا العدد السادس من الملحق الإخباري المشترك مرة أخرى، تحديد قصص تعكس المرونة والمهارة الاستثنائية التي يتحلّى بها الأفراد والمجموعات في مواصلة عيش حياتهم، والاحتفاء بهذه القصص. ولهذا الغرض، جمعنا مقالات لصحافيين لبنانيين وسوريين مقيمين في لبنان يمثّلون صحفاً تعبّر عن وجهات نظر متعدّدة، ومن ضمنها صحيفتا «الحياة» و«العربي الجديد»، وصحيفة «المدن» الإلكترونية، وموقع «ناو» الإلكتروني، مع مساهمة على الغلاف الخلفي من الفنان السوري وسام الجزائري الذي شارك في أعمال فنية متعدّدة الوسائط حول الأزمة السورية.

روس ماونتن
الممثل المقيم لبرنامج الأمم المتحدة الانمائي في لبنان

مساعدة اللبنانيين والسوريين على التعامل مع الأزمة

تفرض الأزمة السورية المطوَّلة تحدياتٍ كبيرة على لبنان، أبرزها انتشار الإرهاب، وارتفاع عدد اللاجئين السوريين في أنحائه. ولا يزال من الملحّ بالنسبة إلى المجتمع الدولي مساعدته في الاستجابة لهذه التحديات بفعاليّة.

واليابان، باعتبارها دولة مانحة، تدعم جهود الأمم المتحدة الرامية إلى "تعزيز الشراكات من أجل استقرار لبنان"، وحشد الموارد المالية لمساعدة الفئات المستضعفة، فضلاً عن الاستثمارات في الخدمات والاقتصاد والمؤسسات في المناطق المحرومة. وعلينا أن نحدّد هدفاً لضمان استقرار هذا البلد من خلال وضع مقاربة استراتيجية ومتكاملة لدعم الفئات التي تعاني ظروفاً صعبة.

حالياً، يجري العمل في المشروع الذي التزمت به الحكومة اليابانية خلال العام الماضي، ويهدف إلى توفير المعدات الضرورية للمدارس الرسمية والمستشفيات الحكومية التي تستقبل الأطفال والمرضى السوريين. ونُعطي الأولوية لتلك المدارس والمستشفيات التي أُنهكت مرافقها بشدّة جراء هذا العبء الإضافي.

وكانت سفارة اليابان قد أنجزت مؤخراً مشروعاً لتركيب معدات لتنقية المياه في المدارس الرسمية في ساحل منطقة الزهراني - جنوب لبنان، ويستفيد الآن الطلبة اللبنانيون والأشخاص القادمون المستضعفون من مياه نظيفة.

إن هذه المشاريع لا تساعد فقط على تنمية المنطقة وإنما تلبّي أيضاً الحاجات الإنسانية الطارئة للأفراد، كما تساهم في تعزيز الاستقرار في البلاد على الأمد الطويل. ومن خلال خبرتنا، نأخذ في الاعتبار هذه التأثيرات، ونتشاور مع السلطات اللبنانية للوصول إلى الحل الأمثل.

سئيتشي أوتسوكا
سفير اليابان لدى لبنان

هل ترون ما أرى؟

«هل ترون ما أرى؟»، هو عنوان المعرض الذي نظّمته مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين في زحلة، حيث شارك مراهقون سوريون اختبروا التهجير والنزوح، في رؤية جديدة لواقعهم. وقد أريدَ للمعرض أن يكون صورة للواقع، ينقل فيه هؤلاء أوضاعهم من دون أن يعبّر الآخرون عنهم. ولعلَّ في تعبيرهم عن أنفسهم تنفيساً لحالة احتقان سائدة في صفوفهم، وإخراجهم من عزلتهم إلى رحاب الحياة العامة، وتحديداً الحياة الفنية، وأيضاً التركيز على فسحات أمل ورجاء في حياة اللجوء مقارنة بآخرين قضوا تحت الركام أو أصيبوا بعاهات صارت تعوّق حركتهم، وتمنعهم حتى من الهرب.

في المعرض خروج من الذات، ومن الحرام والممنوع، وكل القيود الأخرى التي حملها السوريون معهم الى لبنان. ولعلّ الجانب المفيد أيضاً فيه مشاهدة اللبنانيين له، وتفاعلهم مع جيرانهم الذين أصبحوا في كل مدينة وقرية، والاطلاع على واقع الحياة الذي اختبره اللبنانيون زمن الحروب المتتالية التي عاشوها في بلدهم.

يشكّل المعرض جواز عبور إلى حياة لبنان الاجتماعية، وقد يكون مفيداً أن تجول تلك اللقطات المصورة على كل المناطق اللبنانية، وتكون محطّ مشاهدة ومناقشة، فنعمّق ثقافتنا لحقوق الانسان، بل ونختبر مدى إيماننا العميق بها، والتزامنا إياها، حتى لا تظل حبراً على ورق، وتسقط أمام الاختبارات المتتالية.

«هل ترون ما أرى؟»، فكرة ممتازة لنرى بعيون الآخرين، علّنا نحسّ بقلوبهم، ونتحسّس آلامهم وأوجاعهم، ونحن على أبواب عيد الميلاد، عيد المحبة، والرحمة، عيد الطفل الذي ولد في مذود فقير، لكنه انتصر للحق والحقيقة والمحبة.

غسان حجار
مدير تحرير صحيفة «النهار»

ماذا نُعطيكُم؟

لدينا فساد.
فساد في السياسة، سرقة ونهب في الاقتصاد. فساد في الأغذية، في الهواء، ومياهنا آسنة.
فساد في النفوس يكاد يتغلغل إلى الأرواح.
لدينا حروبنا الكثيرة.
لدينا حروب ساستنا كل على الآخر، وحروب كل منهم علينا.
لدينا حروب بين «الوكلاء الحصريين» في كل المجالات، السياسية والاقتصادية والتجارية والطائفية والمذهبية والمخابراتية...
لدينا حروب بين كل منا و«الآخر»، أي آخر كان، فالاختلاف ممنوع...
لدينا حروب على الثغرات الممتدة بين حدود ما اقتسم من بلادكم وجعل «وطننا»، وبين حدود الحبيبة، حاضنة دمشق وحلب وسائر المدن السورية.
لدينا حرب محقّة واحدة، تكاد تصبح منسيّة في نفوس معظم أبناء هذه الأرض. حرب من أجل فلسطين، ولها، لعلّها إن تحرّرت تحرّر معها كل كائن حيّ، يحيا ما بين حدود الماء والماء، من المحيط إلى الخليج، من أقصى المغرب العربي إلى أقصى شرقه، فجنوبه وخليجه.
لدينا الكثير من النقص في الأخلاق، والإيمان، والوفاء، والذاكرة، والصدق، والعلم والثقافة والمقدرة على التغيير.
نقصٌ في الذوق، وحب الحياة الكريمة، وحسّ المشاركة، والتخطيط للغدّ.
نقص في الثقة بالذّات، الفردية والجماعيّة.
نقصٌ في حب الذّاتِ أساساً، وفاقد الشيء لا يهِبه.
لدينا نقصٌ مرَضيٌّ بالأمل.
لدينا صغائر تشغلنا بِعَتَهٍ عمّا سواها مهما استُحِقّ.
لدينا كبائر تُرتكب بلا حسيب أو رقيبٍ، أو رَفّةِ عين.
لدينا صغار يتلهّون بنا.
لدينا كبارٌ قرّرنا أن نصغّرهم.
لدينا ظلمٌ كثيرٌ، فكيف يمكننا أن نُنصفكم؟
ذلك بعضُ ما لدينا، فماذا نُعطيكم؟

هنادي سلمان
مديرة تحرير صحيفة «السفير»

حقوق الطبع © 2014 . جميع الحقوق محفوظة لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP)- مشروع بناء السلام في لبنان.
إن المقالات والتحقيقات والمقابلات وغيرها مما ورد في هذا الملحق لا تعبّر بالضرورة عن آراء برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ولا تعكس وجهة نظر البرنامج. ويتحمّل كتّاب المقالات وحدهم المسؤولية عما ورد فيها.

Issue nº 6, December 2014

السوريون بين ٨ و ١٤ آذار: سقطت القضيّة الإنسانيّة

أيمن شروف

مؤخراً، توّجت الحكومة اللبنانية جهودها «الكبيرة» تجاه النازحين السوريين بحيث أقرّت، بعد أكثر من ثلاث سنوات، ما سمّته خطة مواجهة. وهي باختصار، خطة تقوم على إقفال الحدود أمام عبور أي نازح جديد، وإيجاد طريقة ما لترحيل نسبة لا بأس بها من النازحين الموجودين على الأراضي اللبنانية.

© دار المصوّر

مما لا شك فيه أن القوى السياسية اللبنانية تعاطت مع قضية اللجوء السوري بكثير من الرعونة، بل بكثير من السياسة، ومن خلال نظرة كل فريق إلى واقع ما يجري في دمشق. فهناك محور مع الممانعة ومحور ضده، وكلاهما كان له الدور في فشل الوصول إلى تعاطٍ إنساني - واقعي، بعيداً عن كل الحسابات السياسية التي كانت السبب الأساس في منع إنشاء مخيمات فيها الحد الأدنى من مقوّمات الحياة. وقد دفع النازح ثمن هذا الانقسام، وهو يدفع اليوم ثمن استخفاف الحكومة ومن فيها، كما يدفع ثمن ما يحصل على الحدود نتيجة تدخل «حزب الله» عسكرياً إلى جانب النظام السوري، وحسابات المسلحين الموجودين في القلمون، وما نجم عن معارك عرسال من تضييق على اللاجئين وتحميلهم مسؤولية هويتهم السورية، لا أكثر.

في بدء اللجوء، أي منذ ما يقارب الثلاث سنوات، سُرّب كلام عن نيّة تيّار «المستقبل» دعم إقامة مخيمات للنازحين. ثُم سريعاً، انتشر نواب «المستقبل» على المنابر الإعلامية وغير الإعلامية ينفون هذه النيّة. توازياً، كان فريق 8 آذار يهوّل من اخطار إنشاء مخيّمات، لأنها في رأيهم ستتحوّل إلى أماكن لإيواء المسلحين وتدريبهم قبل عودتهم للقتال إلى جانب من سمّوهم، كما سمّاهم النظام السوري، الجماعات الإرهابية.

في هذه السنوات الثلاث، كان الفريق المسيحي في 8 آذار، أي «التيّار الوطني الحر»، يحاول أن يكسب مسيحياً على حساب اللاجئين. وهو حمل شعار حماية الأقليّات ليطالب منذ السنة الأولى لبدء اللجوء، بإقفال الحدود، وإرسال من أصبحوا هنا إلى مخيمات داخل الأراضي السورية. ثُم ذهب هذا التيّار أبعد من حليفه «حزب الله» ومن يدور في فلكه، إذ ابتدع ودائماً خدمة لشعبيّته، كذبة توطين اللاجئين، مروّجاً أن مطلب إنشاء المخيّمات يصبّ في هذا الإطار، واتفق معه في ذلك حزب الكتائب المحسوب على فريق 14 آذار إذ قال إنه يُناصر حق الإنسان السوري في تقرير مصيره.

في المقابل، فإن هرب فريق 14 آذار من مسؤولية إنشاء المخيمات لم تستتبعه محاولات جادة أو ضغط ما من أجل تنظيم النازحين وإيوائهم، وكان بعض هذا الفريق يُفضل التقاط صور له وهو يجول في أماكن النزوح، على أن يفعل شيئاً ملموساً باتجاه تمكين هذا النازح من الصمود. وهذا الصمود ضروري إذا كان هذا الفريق يرغب في سقوط نظام الأسد، الذي يعاديه منذ عامي 2004 - 2005.

أما على المستوى الرسمي فلم تقم الحكومة، سواء تلك التي ترأسها نجيب ميقاتي، أم التي يترأسها حالياً تمام سلام، بالكثير من الجهد من أجل النازحين. فعلى الطاولة في السرايا، حضرت أيضاً الأهواء السياسية لكل فريق، لترسو في النهاية على خطة أقل ما يُقال فيها إنها فاشلة، مع سلطة اعتادت على تأجيل الملفات المهمّة، إلى حين إقرارها بطريقة عرجاء، وبتأخير يُقارب الثلاث سنوات، دفع في خلالها النازح السوري الثمن، كما دفع المواطن اللبناني ثمن هذا الغياب الحكومي عن معالجة ملف بهذه الأهمية.

يهرب النازح السوري من الموت المُستمر في سوريا، ليكتشف أن القضايا الإنسانيّة في لبنان خاضعة دائماً للأهواء السياسية والحسابات المحليّة. فهو كنازح، شُرّح على طاولة الانقسام اللبناني حتى صار العزم على نزعه من هذه الصفة وسيلة للهرب من عُقم السلطة وعدم قُدرتها على التعاطي مع الإنسان، إلاّ بصفته سلعة في سوق الحسابات الرقمية والجغرافية والديموغرافية، لكل فئة من فئات ما يُسمّى الإجماع اللبناني الذي أفضى إلى حكومة قيل إنها لـ«المصلحة الوطنية».

بعد ثلاث سنوات من بدء النزوح، تُشجع الحكومة اللبنانية التي تُمثل كل الأطياف السياسية تقريباً، على إقامة مُخيمات للاجئين في الداخل السوري، يعني أن الهارب من الموت ومن الاقتتال الدائر على أرضه، يُمكنه اللجوء إلى مُخيم حدودي لن يكون بمنأى عن النار الملتهبة في أنحاء سوريا. إنها خلاصة لهذا الكمّ من اللّامبالاة بحق قضية إنسانية، أدخلها اللبنانيون في زواريب عجزهم عن الاتفاق على أي شي.

فبمُجرد أن يقرأ اللاجئ السوري مثلاً بيان كتلة «المستقبل» التي لطالما اشارت الى انها تقف إلى جانبه، والذي تُهنّئ من خلاله الحكومة على إقرارها «ورقة النازحين»، يُدرك أنه أصبح وحيداً، وأن الخطاب العنصري صار معمّماً على الجميع. فحتى الهواء، قد يقاسمونه إياه لاحقاً أو الآن، لا فرق.

اختبار أن تكون نفسك والآخر... وصورة عن ذلك المتخيّل

محطات سورية في لبنانيّتي

بيسان الشيخ

في ما يلي ثلاث محطات من التجارب الشخصية في العلاقة اللبنانية - السورية حيث شكّلت الأخيرة جزءاً أصيلاً من هوية الأولى. ثلاث قصص هي جزء يسير من محطات كثيرة، ولا تختصر العلاقة، لكنها تقدم نافذة على تشابك المسارات الكبرى مع تلك الفردية والحميمة. وعليه، فللقارئ أن يطالعها بترتيبها المعروض، أو أن «يشقلبها» بشيء من الخفّة والتسامح الذي تتيحه تلك العلاقة المتينة رغم كل شيء.

كان عمري قد تجاوز العاشرة بقليل عندما دخلت مع أمي إلى المحل الصغير في احدى أسواق دمشق القديمة، عسانا نجد «الشرشف الشامي الأصلي» الذي ألحّت علينا جدتي بأن نعود به. إنه ما يسمّى بعامية منطقتنا «الشرشف المجفّر» ربما لشيء فيه أقرب إلى التضاريس منه إلى الزخرفة. وهو على أي حال، مقتصد في الألوان والزركشة، كما أنه عمليّ وعلى قدر من السماكة بحيث يخدم غطاء للسرير نهاراً وللنائم ليلاً.

هدّدتنا جدتي بأن «ترمي للكلاب» أيّ شرشف يخالف طلبها، حذّرتنا من أن السوق أُغرقت ببضاعة مقلّدة لبنانية ومصرية، لا تقارن أي منها بالصناعة الشامية. فتلك وحدها، برأي جدتي، هي الأصلية، والمتينة، والناعمة على الملمس في آن. وتستطرد بسرد الصناعات السورية «الأصلية» من سمن حموي وزعتر حلبي وحلو شامي وغيرها.

دخلنا أمي وأنا المحل متشبّعتين بتلك التوصيات فإذا بالتيار الكهربائي ينقطع فجأة. ارتبكت امي لما قد يعني ذلك من سوء طالع، فإذا بالتاجر يدعونا للدخول، ويشتم اللبنانيين «ولادين الكلب» لأن الكهرباء، بحسبه، تُقطع عن السوريين لتضيء كاباريهات بيروت.

ارتبكت أمي وهمّت بالخروج وعلى وجهها تلك التعابير التي تسبق معاقبتي حين أقدم على ما يغضبها. فرأيت نفسي أعود خطوتين إلى الخلف وأقول للبائع «عمّو.. نحنا لبنانيّي.. وما عنّا كهربا».

لا داعي طبعاً لسرد الحفاوة التي عاد الرجل واستقبلنا بها، فأغدق عليّ السكاكر وعلى أمي تخفيضات جعلتها تشتري أكثر مما تنوي من تلك البضاعة التي لا مثيل لها عندنا.

هكذا كانت سوريا كلها بالنسبة إلينا، نحن أبناء المناطق الحدودية. هي غطاء أصيل ومتين، يقينا الحر والبرد ولا ينافسه في حميميته شيء، بينما لبنان عندهم تختصره بيروت بصورة المدينة الصاخبة والماجنة.

وفيما بيروت تلك، وبقية المناطق اللبنانية، مُنعت عنا خلال الحرب، كانت حمص مدينتنا بعد طرابلس، نقود سياراتنا إليها، من دون إذن مسبق من الأهل أحياناً، فنعبر الحدود كمن يمرّ بأي حاجز لقوات «الردع» المنتشرة بكثرة في منطقتنا.

وفي زمن لم يتجاوز فيه بث تلفزيون لبنان نفق مدينة البترون، نشأنا كغيرنا من الأطفال السوريين على برامج التلفزيون السوري، وإعلاناته

عربة مشاوي و"كبة حلبية" في منطقة الشيخ مقصود في حلب (تصوير: بيسان الشيخ)

واستعراضاته العسكرية. وكنت إذا أردت إضحاك رفاقي أروح أقلّد نداء مذيع التعاونيات الزراعية فأردد بصوت جهوري «أخي الفلاح في محافظة دير الزور...»، أو «أخي المواطن في محافظة الحسكة...». وتنتابنا نوبة ضحك لا تقطعها إلاّ بداية حلقة جديدة من مسلسلات «غوار الطوشة». تلك وغيرها تفاصيل لا يشاركني بها أبناء وبنات جيلي من مناطق لبنان الأخرى ومن زاملتهم في سنوات الدراسة الجامعية في كلية مسيحية فرانكوفونية. كانت لبنانيتي منقوصة، فأنا هناك أقرب إلى أن أكون «سورية» (والأسوأ بإسم فلسطيني!)، و«لبنانية» خالصة في سوريا. وكلما استجمعوا شجاعتهم وجاءوا لزيارتي في بلدتي الشمالية، أصعد بهم إلى الشرفة وأشير إلى هضبة قريبة وأقول بنبرة فرحة «هذه سوريا»، فيتوجسّون ويهبطون إلى حيث لبنان أقرب إليهم.

أما أنا، فقد استغرقني وقت غير وجيز لأدرك خشونة ذلك الغطاء «الأصلي والمتين» علينا نحن اللبنانيين، وأنه لا يكفي صاحبه... ما لم يكن دون العاشرة أو فوق الستين.

***

كان الطقس في اسطنبول قارساً عندما اتصلت بباسم أعلمه بقدومي وبرغبتي في لقائه. باسم شاب سوري من حلب، خرج منها وهو طفل مطلع الثمانينات بسبب انتماء عائلته لجماعة «الإخوان المسلمين»، وهو عاد وانضوى فيها بدوره، وبلغ موقعاً متقدماً قبل أن ينهي سنواته الثلاثين.

لا يعرف باسم من سوريا إلاّ ما حملته العائلة من أخبار وبعض الصور خلال إقامتها المتقطعة في اليمن والعراق. لكنه تعمّق في المقابل في قراءة تجربتها السياسية، وعاش بالتواتر مأساة الآباء في حماه وحلب، حتى يكاد يدمع كلما يأتي على ذكر تلك المجازر كأنه عاشها بنفسه.

عندما التقيت باسم للمرة الأولى عبر أصدقاء مشتركين، كان مضى على انطلاق الثورة السورية 6 أو 7 أشهر والأمل لا يزال كبيراً بأن يكون موعدنا المقبل في دمشق، أو هكذا بدا لي. كان لقاؤنا من ضمن مجموعة في مقهى فاخر مطل على ساحة «تقسيم». لم أحسب أن شاباً إخوانياً قد يجلس في مكان يقدم المشروبات الكحولية إلى جانب القهوة والحلويات من دون أن يبدي انزعاجاً، لكن في المقابل، كانت سحنته البيضاء «الشامية» تتلوّن بشيء من الخفر عندما تحدّق فيه احدانا وهي تخاطبه.

ومع تأجيل موعدنا الدمشقي إلى أجل غير مسمّى، تحوّلت اسطنبول وتركيا عموماً من انطاكية وغازي عنتاب ومخيمات كلس والريحانية وغيرها، محطة عمل دورية للقاء السوريين، وصار باسم بدوره موعداً ثابتاً بالنسبة إليّ وعوناً وثقةً في العمل. وكنت كلما رأيته، أجده وقد تمكن أكثر من معرفته بتركيا، وراح أخيراً يتعلّم لغتها، ويتابع شؤونها إلى جانب نشاطه السياسي المرتبط ببلده، عكس كثير من السوريين الذين أقاموا فيها أو في بلدي، لبنان.

وإذ رأى كثير من الأصدقاء السوريين واللبنانيين على السواء، في النموذج الذي يقدمه باسم من سلوك وأقوال دليلاً على «ازدواجية الاخوان ونفاقهم»، وجدت فيه باباً رحباً لمعرفة جزء من سوريا بقي طويلاً طيّ الكتمان.

والواقع أنني لم ألحظ متى نشأت تلك الثقة بيننا على اختلاف انتماءاتنا الفكرية والدينية والسياسية، خصوصاً مع ما يحمله كل منا من أحكام مسبقة عن الآخر. فأنا لبنانية غير متديّنة، وهو سوري إخواني!

لكني وفي كل مرة، كنت أجده مقبلاً على لقائي بقدر إقبالي على لقائه. هو يريد أن يعرف أكثر عن لبنان ووضع السوريين فيه، والخلافات السنية - الشيعية، كما أنتزع منه في المقابل روايات شخصية وعامة وأرقام أناس التقيتهم في ذلك الشتات، ومعلومات لم يبخل عليّ بها، سواء للنشر الفوري أم المؤجل.

هكذا كان الحديث دائماً يقودنا إلى شكل سوريا بعد الأسد، فأتهمه بمطامع «الإخوان» بحكم البلد وفرض الشريعة وابتلاع لبنان، فيمازحني هو في المقابل بأن يجعل على رأس أولوياته إذ ذاك، تشكيل جناح لـ«الأخوات العلمانيّات» يوكلني به.

***

في مطلع شباط 2013 التقيت ياسين عند معبر «باب السلامة» كي أعبر معه إلى «المناطق المحررة» في حلب وريفها. كنت قد تواصلت معه سابقاً عبر «الفايس» و«سكايب» ولم أقابله قط. بدأ اللقاء بإرباك لكونه افترض أنني سأكون برفقة زملاء أو فريق تصوير، فيما توقعت أنا في المقابل أن عائلته تقيم في البيت حيث سأمضي نحو أسبوعين. فوجئنا بأننا سنكون وحدنا في منزل في إحدى أكثر بلدات ريف حلب محافظة. تململ ياسين بداية، ولم يعرف كيف يخرج من هذه الورطة، لكن التراجع ما كان ممكناً عند هذه المرحلة. قال إنه فور وصولنا يجب إبلاغ «الضابطة الشرعية» بالموضوع لمزيد من الاطمئنان، عدا أننا بمطلق الأحوال يجب أن نخبرهم بوجودنا وعملنا، ونصحني بألاّ أنزع غطاء الرأس الذي كنت أصلاً متمسّكة به أكثر منه بسبب الصقيع.

بعد عناء الرحلة، توجهنا فوراً إلى مركز «الضابطة الشرعية»، وكانت تلك الهيئات بدأت تشقّ طريقها حديثاً إلى المناطق المحررة، وتفرض شيئاً من النظام على حياة السكان، لا يغيب عنه الطابع الإسلامي. لم يتوقف المسؤول كثيراً عند تفاصيل إقامتي، لكنه لم يطمئن لكوني لبنانية. هكذا وجدت نفسي متنازعة بين مرافق منزعج من جنسي، ومسؤول ممتعض من جنسيتي، فيما أنا بحاجة الى ثقتهما وحمايتهما معاً.

راح المسؤول يطعّم حديثه معي بآيات قرآنية، فأكمل بعضها معه، وأصمت عن أخرى، وقد فهمت من ذلك أنه كان يختبر ديانتي. أما ياسين الذي لم يتح له التعرف إليّ كثيراً، فكان مرتبكاً بدوره، وزاد ارتباكه حين راح يتلعثم ببعض الآيات، فبدا واضحاً أنه لا يعرفها. اغتاظ المسؤول وما عاد قادراً على ضبط نفسه، فسأل مزمجراً: «من الآخِر... إنتِ سنيّة أو شيعيّة؟». قلت له: «أفهم من سؤالك أنك تريد أن تعرف إن كنت مع الثورة أو ضدها؟ حسناً، لا داعي للخوف، فأنا أؤيد الثورة». لكن موقفي السياسي لم يكن كافياً لإقناعه، وكان لا بد من طائفة تمنح الثقة. لم يعجبني الأمر، ورحت أنظر إلى ياسين نظرات استجداء لإنقاذي. وعلى ما اختبرت لاحقاً، فإن «ياسينو» كما صرت أناديه، شاب ريفي طيّب وبسيط، وحيد لأمه بين أخوات إناث، ولا يملك من الحجّة أو النفوذ ما يسعفني. كل رصيده سمعة جيدة وشبكة علاقات وطيدة بين شباب الثورة الأوائل، هؤلاء المدنيين الحالمين الذين خرج معهم مطالباً بالحرية، وما زال يتمتع مثلهم ببعض الاحترام.

ولشدّة حيرة الشيخ المسؤول في طائفتي، راح يخبرني أنه خدم في قوات الردع في لبنان، ويسمّي مناطق ذات لون واحد مر بها، ليرى إن كنت من إحداها، ثم قرر استدعاء جندي سجين لديه من الطائفة العلوية، ليخبرني الأخير عن «حُسن المعاملة» التي يتلقاها.

بعد نحو ساعة من الاستجواب بلا طائل، وتأكيد ياسين أنه يأخذني على عاتقه وضمانته، استسلم المسؤول ومنحني الأمان، ورحّب بي صديقة للثورة.

كانت الخطة تقتضي بأن أعود إلى ريف حلب بعد بعضة أشهر، أي في نهاية صيف 2013 أو بداية الخريف. لكن «ياسينو» نفسه كان قد غادر بلدته وانضم إلى عائلته في غازي عنتاب بعدما قضى كثير ممن التقيناهم من ثوار وقادة كتائب، وبعدما أمسكت جبهة «النصرة» بزمام الأمور.

لقد جاءني صوته من تركيا حزيناً ليخبرني أن بلدته وجوارها ما عادت تتسع لمن هم "مثلنا".

شراء المازوت وبيعه في حي الشعار في حلب

أحد مداخل مدينة حلب التي طوقتها النفايات وتسببت في الامراض (تصوير: بيسان الشيخ)

«منصّات الصحف كانت أكثر ما تغريني»

© دار المصوّر

«الحلم البيروتي»

عهد الهندي

قبل أن أغادر سوريا وإلى الأبد، كنت أسافر إلى لبنان بين فترة وأخرى، حيث كانت بيروت بالنسبة إليَّ جرعة أمل وحياة. ولم أكن قد انخرطت في أي نشاط معارض يومها، لكن ألوان هذا البلد كانت تجذبني، على عكس لون بلدي الذي كنت أراه أسود.

كان هذا الشعور ينتاب المسافر السوري منذ لحظة دخوله إلى نقطة المصنع الحدوديّة. فالبيوت في لبنان ملوّنة، والمحال تحتوي على بضائع لا تراها في سوريا الإشتراكية، والأطعمة تُقدَّم بشكل أجمل، ووجوه الناس تضحك أكثر، ومنصات الصحف كانت أكثر ما يغريني.

قصدت بيروت وسكنت فيها صيف العام 2007. ولم أكن قد هربت من حرب أو اقتتال، كما غالبية اللاجئين السوريين اليوم، بل لأنني كنت واحداً من مجموعة صغيرة تسمِّي نفسها المعارضة السوريَّة.

لقد اعتقلت في سوريا لنشاط طلابي بسيط، كان البيروتيون ممن عرفتهم لاحقاً، يقومون به ويتناقشون في السياسة وهم يدخنون سجائر الحشيش من دون خوف أو قلق. كان ذلك بالنسبة إليَّ هو أعلى مستوى من الحرية يمكن للفرد أن يصل إليه. كنت حينها أشبّه بذلك اللاجئ الكوري الشمالي الذي وصل إلى الصين للمرة الأولى، وصاح: هذا بالتأكيد أكثر بلد حرّ في العالم!

كانت جلسة في "مقهى يونس" البيروتي لمناقشة موضوع سياسي عادي ترفاً لم أحلم به في دمشق المحبوسة بأسوارها. فبيروت ولبنان كانا في عينيَّ كل شيء: الحريّة الاجتماعيّة، والحريّة السياسيّة، وكل هذا لم أكن أعرفه في سوريا.

كنت أرى يومها أن أصدقائي اللبنانيين كثيرو الشكوى، فلا يعجبهم قدر الحرّية الذي يتمتعون به، ولم أدرك سبب اعتراضهم. كنت أعتبرهم مترفين، ولايقدِّرون نعمة أن تعيش في دولة حرّة، وفي مجتمع حرّ لا يحاسبك على اختلافك، ويحترم بجزء منه طاقات الأفراد واختلافاتهم.

كانت نظرة السوري إلى لبنان هي أنه كيان وليس وطناً، لكنني في بيروت عرفت العكس، ووجدت أنه بالرغم ممّا يسمّى انقساماً طائفياً، كانت هناك هويّة وطنية لبنانية متجذّرة أكثر من تلك الموجودة في سوريا، وكانت للبنانيين صفات مشتركة أكثر من تلك التي تجمع السوريين.

في لبنان رأيت للمرة الأولى أن مفهوم الوطن هو حينما يكون جزء كبير من أفراده متفقين على أنهم مختلفون. وجدت ذلك الوطن المفقود، الوطن الذي أستطيع به أن أعبّر عن الكثير من آرائي، وأن أمارس هواياتي من دون الخوف من نظام قمعي أو مجتمع ينبذ المختلف.

وجدتُ في لبنان حفنة من الشباب الثائرين الحالمين، يجتمعون علانية، يناقشون غضبهم من كلّ ما هو موجود في بلدهم، ويجدون في ذلك صلة وثيقة بما هو قائم في بلدي. ولم يطل الأمر حتى صرت واحداً منهم، كيف لا؟ ألَسنا "شعباً واحداً في دولتين"؟. حتى هذه العبارة التي لم تكن محبّبة إلى قلبي من قبل، صار لها نكهة جديدة ومعنى جديد حين رأيت نفسي واحداً من مجموعة تضع كل كلامها وسخريتها وتهكّمها في نشرة طلابيّة لا توفّر طرفاً سياسياً في لبنان، ولا نظام الحكم في أي دولة عربيّة، وتوزّع جهاراً نهاراً في مختلف جامعات بيروت والمناطق. باختصار، كنت أعيش بيروت الحلم.

اليوم تغيّرت الصورة، فأنا أعيش في أميركا منذ ست سنوات، والكثير من صفات لبنان لم تعد هي هي..

فحتى في أوج الاغتيالات التي استهدفت القياديين والمفكّرين اللبنانيين المعارضين للنظام السوري، كان هناك هامش للتعبير والحركة لدرجة جعلتني أرى في لبنان ذلك الوطن المخلّص. أما اليوم فالسوريون لم يأتوا إليه بحثاً عن وطن كما فعلتُ أنا من قبل، بل أتوا خوفاً من موت ومن قتل يوميّ، وليس لديهم أصدقاء كما كان لديَّ. السوري يشعر أنه مكروه سياسياً من فريق لبناني واسع، ومنبوذ عنصرياً من الفريق الآخر، علماً أننا كسوريين معارضين شعرنا آنذاك بنوع من الدلال من الفريق اللبناني المعارض للنظام السوري، والذي يتهمه بقتل قادته واحتلال بلده.

ومع أنني أعيش في بلد يُسمّى في مختلف أصقاع الأرض بـ"الحلم الأميركي"، ما زال للبنان في عينيّ رونق خاص على الرغم من كل التغيّرات السلبيّة الطارئة عليه.. وما زلت أرى فيه ما تقوله الرواية الدينيّة عن النبي يوسف.. ذلك البلد الجميل المختلف عن "إخوته"، وقد تطول عبوديّته، لكنه في النهاية سيخرج حراً، وسيبقى جميلاً.

Issue nº 6, December 2014

عن يامن الذي من حلب... حلب التي في سوريا

ليال حداد

لنُسمّه يامن. قد يكون اسمه حقيقياً وقد لا يكون. المهمّ أنه هو نفسه حقيقي. حقيقي أكثر من كل ما نسمعه كل يوم من تهويل وتخويف من «قنبلة النازحين السوريين التي ستنفجر في وجه اللبنانيين».

عندما غادر يامن «مساكن هنانو» في حلب كان في السابعة من عمره، «كِنت ولد» يقول. أما اليوم فهو في العاشرة «صرت رجال» يقول أيضاً مبتسماً ابتسامة عريضة تتوسط وجهه الأسمر الجميل.

قصة يامن جميلة: فيها الكثير من المآسي، الكثير من الأذى، الكثير من العنصرية، و... الكثير من الأمل.

في أشهر لجوئه الأولى، لم يعرف هو وعائلته المؤلّفة من أب وأم وثلاثة أخوة، شيئاً من العنصرية. لكن مع مرور الأيام، ارتفع عدد السوريين في لبنان، ومعه ارتفع خطاب لم يفهمه الطفل الحلبي في البداية. كان وهو يقطع الطريق يسمع شتائم بحق أمه. وعندما يصل إلى الدكان ليشتري علبة اللبنة يسأله صاحب المتجر: «إذا ما معك مصاري إمشي من هون». لم يكن يفهم. ثمّ علا الصوت. بات يُقال له: «سوري كلب»، وهو يلعب بالطابة مع أخيه. لكن والدة يامن كانت طيلة هذه الأسابيع تعلّمه كيف يقرأ، وكيف يكتب... تشتري له الكتب، والقصص الملوّنة من المال الذي تجمعه مع زوجها.

الأب دهّان في النهار، وبواب بقية اليوم، والأم تعمل في بيوت المبنى الذي يعيشان في غرفة صغيرة في مدخله. دخل يامن المدرسة الرسمية، فيما بقي إخوته في البيت. «معليش، كل سنة منفوّت ولد» كانت تقول أم يامن. وانقضى العام الدراسي، ويامن متفوّق. يمشي في مدخل المبنى حيث يسكنون، يردّد دروسه، ويعلّم شقيقه الأصغر كيف يكتب اسمه.

«أنا يامن... من مساكن هنانو في حلب. حلب يلّي بسوريا». يقول عندما يسأله أحدهم «شو إسمك». وهو لم يجد له مكاناً في المدرسة الرسمية هذه السنة. لا مكان للأطفال السوريين، قالوا لأمّه. لكنّ تفوّقه شفَع له. إحدى المدرّسات في المدرسة الرسمية توسطت له لدى عمتها الراهبة، التي تدير مدرسة خاصة صغيرة. وأخبرت عمّتها عن تفوّقه واجتهاده... قبلت الراهبة، ودخل يامن المدرسة في ما يشبه المنحة المدرسية، ولا يزال متفوقاً. وتفوّقه أذهل المعلمات، والراهبات، كما أذهل رفاقه. أما زملاؤه في الصف فكانوا يسخرون من لهجته، يسخرون من كلمات لم يسمعوها من قبل. كان الطفل الحلبي يقول «أبوي» بدل «بابا». وكان يقول «شلون» بدل «كيف»... وهم أطفال ربما يسمعون يومياً في بيوتهم مطوّلات عن «السوريين الوقحين الذين احتلوا البلد».

كان يامن متفوقاً، منذ أول شهر في المدرسة أظهر تفوّقه. كان يحفظ كل دروسه، ويجيد الحساب، ويقرأ كثيراً. وصار مرجعاً بين رفاقه، وبين أولاد الجيران، يستعير منهم بعض الكتب ويقول لهم: «أريد أن أصبح طبيباً»، ليعالج الأطفال في سوريا. هو لا يحلم، «انا شاطر، وبكرا بجيب منحة من الجامعة الأميركية، وبعدين بسافر على أميركا، وبيصير معي جنسيّة، وباخد أبوي وأمي وخواتي، ومنعيش هونيك ببيت كبير، مع جنينة، متل جنينتنا بالبيت القديم».

لا يخجل يامن من بيته الصغير اليوم. البيت ــ الغرفة يستقبل فيه رفيقين له من مدرسته الجديدة. وتنهمك الأم في تحضير الحلوى لرفيقَي ابنها، حتى لو اضطرت الى الاستدانة من المتجر المجاور الذي بات يعرف العائلة جيداً.

«يامن محظوظ» هكذا تقول أمه، وهكذا يقول أبوه. أما هو فيقول «أنا شاطر»، لا مكان للحظ بالنسبة إليه، فقصته منذ اللجوء وصولاً إلى بيروت خلت من أي «حظ». هو يعرف أنه مجتهد، لذلك لا يزال في المدرسة، ولذلك يحبّه رفاقه، ولذلك سيكبر ويصبح طبيباً.

يامن لا يريد الحديث في السياسة، من كل ما يجري في سوريا لا يعرف سوى «راح البيت». يخبر رفيقيه جورج وفادي عن بيته الذي كان هناك، عن الزرع الذي كان موجوداً، عن الورود التي كانت تهتم بها أمّه كل يوم، وعن الساحة الكبيرة قرب بيت جدّه. وعندما يسمع انتقاداً صغيراً، أو تعليقاً بشعاً، لم يعد يسكت، ولا يبتسم تلك الابتسامة الخائفة. وعندما يناديه أحدهم «يا سوري»، يجيب بتلقائيّة: «أنا مش «يا سوري»، انا «يامن»... من مساكن هنانو بحلب، حلب يلّي بسوريا». سوريا التي لا يذكر منها سوى البيت الجميل. سوريا هي فقط ذاك البيت الجميل.

«سوريا التي لا يذكر منها سوى البيت الجميل»

© دار المصوّر

حكاية مخرج سوري مع بيروت و«معمرجيّيها»

ريان ماجد

«في 10-2-2013 وصلتُ إلى بيروت، بعدما هربت من الشام عبر الحدود السورية - اللبنانية. كانت هذه أول مرّة آتي فيها إلى هذه المدينة التي كنت أسمع عنها من الأغاني والشعر ومن أصدقاء لي كانوا يقصدونها ليمضوا فيها أيام عُطَلهم».

هكذا يروي زياد كلثوم بداية علاقته ببيروت، وهو مخرج سوري ترك مدينته حمص عند تخرّجه من المدرسة ليدرس السينما في روسيا، وعاد منها إلى الشام، وبقي ثماني سنوات هارباً من تأدية الخدمة العسكرية، ولم يكن قادراً بسبب ذلك على السفر خارج البلاد.

(تصوير: طلال خوري)

عن تلك المرحلة يقول: «هربت لأنني لم أكن أريد الانتماء إلى هذه المؤسسة، لم أكن قادراً على إدخال دمار نفسي إضافي إلى حياتي. وعيت على الحياة وأنا أسمع قصص الجيش المخيفة، ونوعية العقوبات فيه، وبشاعة التعاطي داخله. كنت أهرب من تمضية سنتين ونصف السنة من الرعب، من أن أقول سيدي طوال الوقت، بعدما كان الأب في المنزل سيدي، والأستاذ في المدرسة سيدي، والمدير سيدي، و«الزعوري» في الشارع سيدي. كنت أشعر وكأنه سيتم اغتصاب سنتين من حياتي، من المفترض أنهما ذروة الطاقة والإنتاج».

خلال سنوات الهروب من الخدمة، عمل زياد على مشاريع فنية مختلفة، وأنجز فيلمه الأول: «آي دل» أو «أيها القلب». ويتذكر: «عند مروري ذات يوم من «عين ديوار» إلى «كوباني» (في الشريط الحدودي السوري الشمالي)، سحرت بجمال الطبيعة وألوان القمح، وبعادات وثقافة الناس هناك، وقرّرت أن أصوّر حكايا الناس المعتَّم عليها في سوريا - إذ ممنوع تناول موضوع الأكراد وإيصال صوتهم - وأن أنقل أصوات مجموعة من النساء يحكين عن حياتهن ويعبّرن عن وجعهن بالموسيقى والغناء البكائي».

وبعدما استنفد كل خياراته ولم يعد لديه أي فرصة للهرب من الجيش، دخل زياد إلى المؤسسة العسكرية عام 2010، ويقول: «ما شجّعني

وقتها أنه في العام ذاته، أُصدر عفو عن كل من تخلّف عن الالتحاق بالجيش سابقاً في حال التحق بعد صدوره، وخُفّضت الخدمة من سنتين ونصف السنة إلى سنة ونصف السنة. إلتحقت عندها، واندلعت الثورة واحتفظوا بنا وألغوا التسريح، وأمضيت ثلاث سنوات في ما هربت منه طوال عمري. خلالها، رأيت كيف تُدكّ البيوت بالدبابات. وأنا الذي كنت ضدّ ما يحدث، أُجبرت على البقاء».

حيال هذا الضغط النفسي، «تحايل» زياد على الوضع علّه «لا يؤثر كثيراً» عليه: «هناك من كان يسعى إلى تربية وحش في داخل كل واحد منّا ويقوم بتغذيته. كنت أحاول قمعه، لأن إنسانيتي كانت لا تزال أقوى من هذا الوحش».

وقرّر توثيق المكان الذي كان فيه في المؤسسة العسكرية: «أنا سينمائي والأداة الوحيدة التي أعرف التعامل معها هي الكاميرا. أخذت أصوّر البشاعة المحيطة بي، الحيطان والألوان. لا يوجد حائط إلاّ وعليه 50 صورة لبشار الأسد، كنت مرغماً على البقاء محاطاً بها يومياً من السادسة صباحاً ولغاية الثانية بعد الظهر. كنت أذهب بعد الدوام للتصوير مع محمد ملص (مخرج سوري) في الفيلم الذي كان ينجزه في الشام. وكان عملي هذا بمثابة علاج لي رغم صعوبة الانتقال بين مكانين متناقضين. بين الصبح والمساء، كنت أشعر بتوازن وبانفصام في آن».

هرب زياد أخيراً من الجيش، وعن تجربته يقول: «هربت كي لا أتحول إلى قاتل، لم يعد لديّ خيار آخر»، وتخفّى ريثما أنهى فيلمه، «الرقيب الخالد». «لم أكن أريد الخروج من سوريا قبل أن أحكي عن جزء من التجربة التي عشتها».

أتى من بعدها إلى بيروت، محمّلاً بمشاهد الحرب وبمجزرتين قام بهما النظام السوري، مجزرة «التلبيسة» ومجزرة «اعتصام الساعة» في حمص. وبدأ البحث عن موضوع فيلم جديد، ليحافظ على توازن نفسي نسبي.

«عندما أمشي في بيروت، أتذكر الحرب، هي في كل مكان، في التماثيل وورش العمار والأبنية. ضجيج العمار والجبّالات وآلات الحفر هي السمة المسيطرة على المدينة. وعندما أرفع رأسي إلى السماء، أرى أشخاصاً في النهار «يتدندلون» من السماء، و«يتعمشقون» على البنايات، ويقفون على السقالات، وفي الليل، ينزلون من السماء إلى تحت الأرض. هنا كحفرة يعيش فيها 400 شخص. هم العمال السوريون، أساس عملية الإعمار، الذين لا يستغني عنهم أصحاب رأس المال لأنهم يحققون لهم شروط ربح لا توصف، وهم في الوقت ذاته محاصرون ومحاربون من المجتمع اللبناني».

ولّدت هذه المشاهدات أسئلة كثيرة عند زياد، وتساءل: «ما هي حكايا هؤلاء العمّال، هل هذا ما سيحصل في سوريا عند انتهاء الحرب؟ هل هكذا سيكون شكل البناء؟ هل سيترك العمال لبنان ويعودون إلى سوريا لتنفيذ عملية إعادة الإعمار؟».

وأصبح عنده رغبة أكبر بالتعرّف على تفاصيل حياتهم وتاريخهم: «نحن هاربون من الحرب ذاتها والبلد والخلفية ذاتها. ونظرتنا إلى بيروت تتشابه أيضاً. فهذه المدينة التي خسرت فيها أحباباً وأصدقاء، والتي، بسبب قسوتها وصعوبة الحياة فيها ومتطلباتها الكبيرة، أفرغتني مما تبقى لديّ من طاقة، وأخرجت الوحش الذي كان بداخلي ومعه كل العنف المكبوت والذكريات الأليمة. دوّختني بيروت. أراها تدور كما تدور الجبّالة حول النقطة ذاتها».

أراد زياد تصوير فيلم انطباعي عن العمّال وعن حياته في بيروت التي أتى إليها لاجئاً فجمعته بهم، «من دون تسوّل عواطف أو بكائيات».

فبالرغم من قساوة حياة هذا العامل الذي صوّر تفاصيلها، رأى فيه نموذجاً عن الإنسان الذي لا يتوقف عن العمل: «هو يعمّر بلداً، وفي الوقت ذاته بلده يُدمّر. كان مُهاناً في بلده من النظام وهو اليوم مُهان من المجتمع اللبناني. يهرب من خوف إلى خوف لكنه يستمر. يحفر في الباطون، ينحت في الصخر، يشيّد هو ورفاقه بناية من 35 طابقاً وعندما ينتهي من بنائها، ينتقل إلى ورشة ثانية، ليحفر جورة وأساسات جديدة. يعمل 30 يوماً في الشهر ليتمكّن من إرسال المال إلى عائلته، متمنياً أن تكون الحياة أرحم مع إبنه، وأن لا يصبح معمرجياً مثله. وهو الذي سيبني سوريا في المستقبل».

وصف زياد بيروت بأنها كانت «مرآة» له. هو الهارب من حرب، تماهى مع أبنيتها المهدّمة والمحروقة والمخردقة، لكنه في الوقت ذاته، أخذ قوّة الروح والإصرار من العامل السوري، الذي يعمّر ويعمل من دون توقّف: «في لحظة ما، لم أعد أريد أن أكون تلك البناية المخردقة، المتروكة آثار الحرب في داخلها من دون ترميم، بل تلك التي يبنيها العامل. هو يعمّر، وأنا أيضاً سأعمّر على طريقتي».

أنجز المخرج السوري تصوير فيلمه الطويل الثالث، «ديك بيروت»، وغادر هذه المدينة، منتقلاً إلى محطّة أخرى وبداية جديدة، كما العامل السوري، بالرغم من وطأة الأحمال.

«هو يعمّر بلداً، وفي الوقت ذاته بلده يُدمّر»

المخرج زياد كلثوم بين عاملين سوريين (تصوير: طلال خوري)

مناهضو العنصريّة في لبنان: المعركة طويلة

نضال أيوب

يخطئ من يظن أنّ العنصريّة في لبنان تجاه السوريين حديثة العهد، أو أنّها حصراً تجاههم. فللعمال الأجانب أيضاً نصيب من ارتفاع منسوب الكراهيّة والعنصريّة. كما أن التخوّف من «الخطر السوري» الذي يعتمده من يمارسون العنصرية حجةً كان قد سبقه قبل سنوات تخوّف من «الخطر الفلسطيني» أيضاً.

مناشير موقعة بإسم «لجنة مناهضة الطائفية والعنصرية» © دار المصوّر

لكننا اليوم نشهد ازدياداً مرعباً لحالات الاعتداء على العمال السوريين في أنحاء مختلفة من لبنان. وهذه الحالة مشابهة لما حدث ضدهم عام 2005 حيث أصدرت حينها منظمة العفو الدولية تقريراً أشارت فيه إلى مقتل حوالى 20 عاملاً، فضلاً عن 31 عملية إضرام نيران بشكل متعمّد في ممتلكاتهم وإتلافها، عدا عن إحصاء نحو 700 مفقود سوري بين الأعوام 2005 و2010 بحسب جريدة «الأخبار» اللبنانية.

والواضح أن الاعتداءات السابقة والحاليّة على السوريين ليست «أعمالاً فرديّة»، كما يروَّج، بل تأتي ضمن سياق ممنهج من التحريض العنصري ضدهم، يبدأ من تصريحات السياسيين، مروراً بوسائل الإعلام والأحزاب بتعدد اتجاهاتها، وصولاً إلى الإجراءات الحكومية التعسفيّة وقرارات البلديات. وفي ظل هذا الواقع المزري للاجئين، نشهد ندرة في المواقف المناهضة لهذه العنصريّة، وأغلبيتها تنحصر في العالم الإفتراضي. أما على أرض الواقع فالتحركات تكاد لا تتخطى أَصابع اليد، ومن المؤسف القول أنّها تصدر عن المجموعات ذاتها، مما يطرح العديد من التساؤلات حول الجديّة في معالجة هذه المشكلة.

ومن المفيد التذكير هنا بأنه، قبل ثلاث سنوات، قامت «الحركة المناهضة للعنصريّة»، بمساعدة مجموعة من الناشطين والناشطات، بإنتاج فيديو قصير يردّ على التصريحات العنصريّة لاقى انتشاراً كثيفاً على صفحات التواصل الإجتماعي، إلّا أنه بالتأكيد لم يضع حدّاً لتلك التصريحات بل سرعان ما بادر العديد من البلديات بنشر لافتات على امتداد لبنان تقريباً، تمنع فيها العمال السوريين من حقّهم بالتجوّل. وعلى أثر ذلك قامت الحركة نفسها بالتنسيق مع «نسويّة» و«المنتدى الإشتراكي» بتعليق ثلاث لافتات مضادة، رحبت بالسوريين، واعتذرت عن الإنتهاكات العنصريّة. ولكنها ثلاث لافتات فقط حُصرت في مناطق بيروت يقابلها عشرات من اللافتات العنصريّة في مناطق مختلفة - كما تقول العضو في الحركة فرح سلكا - وتضيف: «كنا نأمل أن يبادر آخرون في مناطق أخرى للعمل بالمثل ولكن هذا الأمر لم يحصل»، وتؤكد أنّ «العنصريّة تأخذ أشكالاً متعددة، وفي كل فترة تُوجّه نحو فئة معيّنة كالعمال الأجانب، والفلسطينيين، واليوم نشهد تزايداً مرعباً في منسوبها ضد السوريين. وللأسف، فإن الجهات التي من المفترض أن تحاسب الفاعلين، هي من تحرّض على هذه الأفعال».

وفي السياق عينه، يقول تميم عبدو، وهو أحد المشاركين في «الحملة الداعمة للسوريين بوجه العنصرية»: «منذ البدء، أدرك القيّمون على الحملة أنّ التحركات الافتراضيّة من شأنها أن تستقطب عدداً أكبر من المشاركين، بالإضافة إلى أنّها قد تساهم في إيصال صوت مغاير للسوريين، لا سيّما أن وسائل الإعلام باتت تهمّش التحركات المناهضة للعنصريّة في حين تزيد من تهويلها للمشاكل الناتجة من وجود اللاجئين».

من جهّة أخرى، ومع تصاعد وتيرة الخطاب العنصري خلال السنوات الثلاث المنصرمة، نُظّم اعتصام وحيد قام به «المنتدى الاشتراكي» تضامناً مع اللاجئين واللاجئات، ترافق مع نشر بيانات ورسومات كرتونيّة تصوّر واقعهم، وترد على التبريرات العنصريّة. ويقول عضو المنتدى وليد ضو: «مواجهة العنصريّة لا تتم بكبسة زر، أو بنشاطات متفرّقة على أهميتها»، كما يشير إلى أنّ «هذه المرحلة تتطلّب البناء والتنظيم لمواجهة التحديات الحالية واللاحقة. فالحراك المناهض للعنصرية والفاشية لا يزال في بداياته، وقد يكون غير ملموس، ولكن بناء حركة متينة وراسخة يتطلّب وقتاً ومجهوداً كبيرين، وحتى يتحقق ذلك، لن نصمت ولن نترك الساحة خالية لخفافيش الليل والنهار».

إن الطريق ليس سهلاً لا سيّما أنّ النقابات التي تدّعي التغيير استثنت السوريين من جدول أعمالها، ولم تدافع ولو بكلمة عنهم وكأنّهم ليسوا عمالاً. والأمر نفسه ينطبق على الأحزاب اليساريّة التقليدية التي لم تصدر أي موقف تجاه قضيّة اللاجئين، ولا حتى بياناً يندد بالعنصريّة أو الاستغلال اللذين يتعرض لهما السوريون. انطلاقاً من هنا، فإن الحل لن يكون إلّا بإعادة بناء حركة عماليّة قاعديّة تشمل كل الطبقة العاملة، من كل الجنسيات ومن دون أي تفرقة.

تجدر الإشارة إلى أنه ، بعيداً عن الإعلام ووسائل التواصل الإجتماعي، ووفقاً لجمعيّة «دعم لبنان»، لوحظ في بعض المناطق كـ«فرن الشباك، وعين الرمانة، والحدث، والصنايع، ومار مخايل - النهر»، ظهور بوسترات ومنشورات تدعو إلى «رفع الأيدي العنصرية عن اللاجئين والعمال السوريين»، وهي موقّعة باسم «لجنة مناهضة الطائفيّة والعنصريّة». وقد نشرت الجمعية في موقعها النص المكتوب مع بعض الصور المرفقة. إلّا أنه حتى الآن لا معلومات عن هويّة هذه اللجنة ومثيلاتها أو عن خطّة عملها وخطواتها التالية.

Issue nº 6, December 2014

سوريون يحفرون ملامح بيروت

ديما ونوس

بيروت كانت حلماً يراود فنّاني سورية وكتّابها المتمرّدين على تراتيل جيل «طلائع البعث» و«شبيبة الثورة» ضمن النظام الشمولي «البعثي» في سوريا. هذه المدينة التي لا تفصلها عن دمشق سوى مسيرة ساعتين ونصف الساعة بالسيارة، كانت متنفساً للحلم، ومنصة للإبداع، و مجالاً لحريتهم المأسورة. فذلك الجيل الذي لم يعش الحرب الأهلية اللبنانية، ولا يتذكر اتفاق «الطائف»، لم يرث التنميط الظالم تجاه اللبناني بوصفه «كارهاً» و«عنصرياً». كذلك كُسر التنميط المقابل من بعض اللبنانيين تجاه السوريين من خلال اعتبارهم كتلة واحدة «محتلّة» في شخصين: رجل أمن وعامل.

بيروت التي كانت «حلماً» للشباب الباحثين عن عمل بعيداً من قيود «بروليتارية» الاقتصاد «الاشتراكي»، كانت أيضاً ذاكرة جيل الشيوعيين واليساريين الذين عاصروا انقلابات عسكرية وحروباً صغيرة وكبيرة. وتعج ذاكرتهم بزمن جميل وأصدقاء قريبين فكراً وروحاً يتقاسمون معهم اليوتوبيا والأحلام ذاتها... ويناضلون ضد «عدوّ» واحد.

أيضاً، كانت بيروت نزهة المسؤولين السوريين وعائلاتهم. وقد لا تمتد أعناقهم إلى أبعد من بلدة شتورا أو مدينة زحلة في المقلب الآخر من الحدود، حيث المطاعم الفخمة والمحال التجارية المترعة ببضائع لا تصل إلى سوريا.

كذلك كان في بيروت، «الملهى الليلي» لأبناء المسؤولين والتجار الدمشقيين ورجال الأعمال، يجدون فيه مرتعاً وتمريناً لـ«التشبيح» المبكّر. كان هؤلاء يتركون دمشق مساء الخميس، فيقضون الليل في البارات والملاهي اللبنانية، يأكلون، يشربون، يرقصون، يعيشون حياتهم بجانبيها «الافتراضي» و«السرّي»، ثم يعودون مع بداية الأسبوع إلى «علبة الكبريت»، وكأن شيئاً لم يكن. وعندما خرجت القوات العسكرية والأمنية السورية من لبنان في العام 2005، صنع هؤلاء المتنفذّون «بيروتهم» في دمشق، واستوردوا باراتها ومقاهيها ومحالها وسياراتها ومصارفها... وعادات «بعضها».

ما هي الوجوه التي تقابل السوريين في بيروت؟

ثمة بيروت التي فتحت حدودها لمليون ونصف مليون لاجئ سوري هارب من القصف والدمار والكيماوي والخوف، ومن الخدمة الإلزامية في القتل، ومن السجن والتعذيب. تلك الـ«بيروت» كانت خِيماً عدة يقطنها أشخاص كثيرون لم تتأقلم أجسادهم بعد مع الحرارة القاتلة في الصيف والبرد القارس في الشتاء. وقبل أيام قليلة، توفيت طفلة في أحد المخيمات من البرد (هذا ما نعرفه).

يعيش السوريون القادمون من محافظات عديدة ظروفاً معيشية صعبة إلى حد يخفت فيه نبض القلب. مواد غذائية قليلة، ملابس قديمة، استسلام لرحمة «شاويش» المخيم الذي يصدف أن يكون سيء الأخلاق أحياناً ولا يفوّت فرصة للابتزاز والاستغلال. وهناك أيضاً، تحوّلت المرأة السورية أماً وأباً ومعيلاً، نظراً الى هشاشة الأزواج واستسلامهم للإحباط والقلق. ومن هؤلاء رجل فقد عقله، فراحت زوجته «تخدم» في بيوت قريبة.

وثمة بيروت المطلة على البحر، حيث الأبنية الإسمنتية الكئيبة رغماً عن الأضواء المتلألئة في واجهاتها الزجاجية. تلك الأبنية تعجّ بعائلات رجال الأعمال السوريين، ورؤساء أجهزة مخابرات، ومسؤولين موغلين في الدم السوري. ولكن بعيداً من الدم، تعيش تلك العائلات في انفصال كامل عما يجري على بعد أقل من مئة كيلومتر. فهي دفعت مبالغ طائلة لشراء تلك العقارات المكلفة، وحملت معها بيوتها بكل ما فيها من تفاصيل وكأن شيئاً لم يكن. وأبناؤها قد يقصدون عرض أزياء للمصمم اللبناني الشهير إيلي صعب، لكنهم يستثقلون زيارة المخيمات التي يقطنها سوريون. نضرب مثلاً ابنة مسؤول سوري جاءت إلى بيروت في بداية الثورة، وسجلت أبناءها في إحدى المدارس الفرنسية، وبعد أقل من شهر، «هربت» بأبنائها إلى مدرسة أخرى لأن الأهالي الذين تلتقي بهم صباحاً وظهراً على باب المدرسة، ينتمون إلى الطبقة الوسطى في لبنان، ويأتون من عملهم بثياب عادية متواضعة، ويحكون بأمور حياتية يومية لا تستسيغها ابنة الضابط التي كانت، حتى انطلاق الثورة، تعيش في سوريا وليس في باريس!

وهناك بيروت شارع الحمرا ومار مخايل وبرج حمود وقريطم حيث يعيش نشطاء سوريون وفنّانون يعملون في الموسيقى والمسرح والكتابة. هؤلاء حلموا طوال طفولتهم ومراهقتهم بالانتقال للعيش في هذه المدينة، وها هم يعيشون فيها، بعضهم لا يملك جواز سفر، وبعضهم يعيش قلقاً لاقتراب موعد انتهاء صلاحية أوراقه الثبوتيّة، وبعضهم ملاحق، وبعضهم اعتقل وتعرّض لضرب وإهانة. إنهم في الواقع مسجونون في هذه المدينة التي كان هواؤها يملأ صدورهم.

كذلك هناك بيروت الـ«سوبرماركت»، حيث يعمل صِبيةٌ كبروا في شوارعها، يحملون أكياساً ثقيلة، ويدورون فيها إلى بيوت اللبنانيين أو السوريين. وفي تلك الأكياس ما لا يستطيعون امتلاكه وأكله. إنهم يكرّرون تجربة العمال السوريين الذين عمّروا قصوراً وبيوتاً فارهة وينامون في الأقبية وغرف العشوائيات.

ماذا في بيروت أيضاً؟

هناك الشرخ الذي تحفره بين السوريين. تصوّروا صَبيّةً كانت تملك بيتاً وعائلة وسيارة بسيطة، وتعمل ممرضة في مستشفى بمدينة حلب، وها هي تعمل الآن خادمة في بيوت «أخوة» سوريين أثرياء بعدما قصف بيتها، وفقد زوجها عمله، ودفن والداها تحت الأنقاض. هي صَبيّة لم يبق لها وللملايين غيرها سوى ذاكرة قديمة... وأخرى تُحفر الآن... وثالثة حين تعود.

هناك بيروت شارع الحمرا ومار مخايل وبرج حمود وقريطم حيث يعيش نشطاء سوريون وفنّانون يعملون في الموسيقى والمسرح والكتابة

© دار المصوّر

اللجوء الأبدي

«في هذا البحر لا يوجد حروب لا يوجد طوائف ولا أحقاد سوى اللجوء الأبدي»

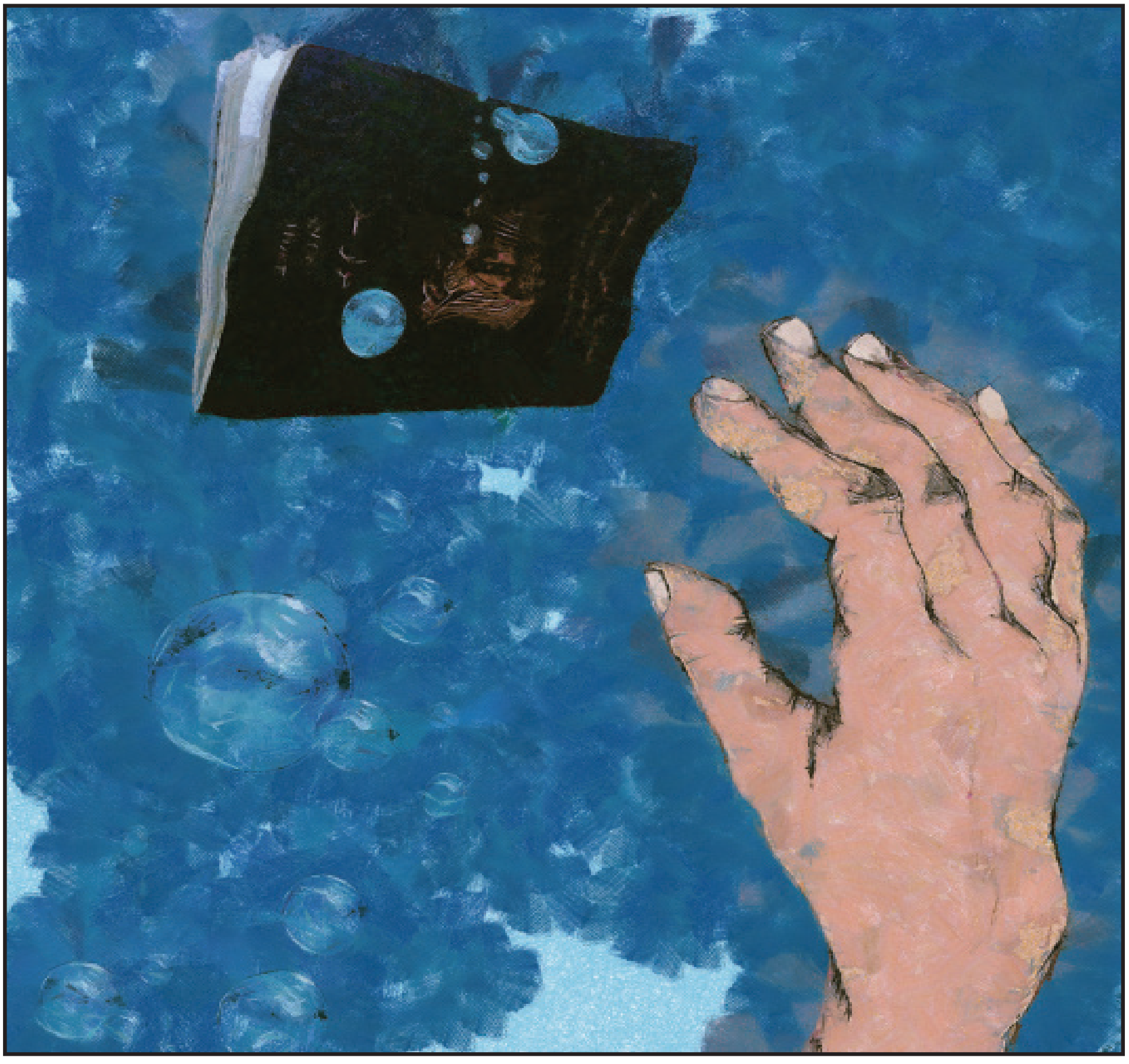

لوحة لـ: وسام الجزائري

يعمل «مشروع بناء السلام في لبنان» التابع لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي منذ العام 2007 على تعزيز التفاهم المتبادل والتماسك الإجتماعي بطريقة تشاركيّة مع الشباب والمدرسين ووسائل الإعلام والمنظمات غير الحكومية، بالإضافة إلى المجالس البلدية والإختيارية والقيادات المحلية.
واستجابة لإنعكاسات أثر الأزمة السورية على المجتمعات اللبنانية المضيفة ومن أجل تخفيف حدّة التوترات المتزايدة حديثاً في البلاد، يعمل المشروع على تعزيز قدرات مختلف فئات المجتمع من قيادات محلية ومدرسين وإعلاميين ومجتمع مدني، على إدارة هذه الأزمة وبناء السلام والتعامل اللاعنفي مع النزاعات ومساندتهم من أجل تطوير إستراتيجيات بناء سلام متوسطة وطويلة الأمد.

من الشعب الياباني
From the People of Japan

شعوب متمكنة.
أمم صامدة.

يعتبر برنامج الأمم المتحدة الإنمائي شبكة التنمية العالمية التابعة للأمم المتحدة وهو يدعو إلى التغيير وإلى تحقيق نفاذ البلدان إلى المعرفة والخبرة والموارد من أجل مساعدة الشعوب على التمتع بحياة أفضل.

لمزيد من المعلومات
مشروع بناء السلام في لبنان التابع لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي،
مبنى البنك العربي الإفريقي الدولي
شارع رياض الصلح - النجمة، بيروت - لبنان،
هاتف: 980583 - 01 / 119160 - 70
www.lb.undp.org
Find us on: facebook. UNDP Lebanon

تصميم وتنفيذ: عمر حرقوص، حسان يوسف
خط: بناء السلام خليل ماجد